

مختصر ابن كثير

59 - إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون .

60 - الحق من ربك فلا تكن من الممترين .

61 - فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم

ونسائنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين .

62 - إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم .

63 - فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين .

يقول جل وعلا : { إن مثل عيسى عند الله في قدرة الله حيث خلقه من غير أب { كمثل آدم } حيث خلقه من غير أب ولا أم بل { خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون } فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأخرى وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقا من غير أب فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى ومعلوم بالإتفاق أن ذلك باطل فدعواهم في عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادا ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلق حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى خلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ولهذا قال تعالى في سورة مريم : { ولنجعل آية للناس } وقال ههنا : { الحق من ربك فلا تكن من الممترين } أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه وماذا بعد الحق إلا الضلال ثم قال تعالى آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان : { فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم } أي نحضرهم في حال المباهلة { ثم نبتهل } فنجعل لعنة الله على الكاذبين { أي منا ومنكم } .

وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران : أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحتاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية فأنزل الله صدر هذه السورة ردا عليهم . قال ابن إسحاق في سيرته : وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى من نجران ستون راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشrafهم يؤول أمرهم إليهم فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات جب وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب قال - يقول من رآهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ما رأينا بعدهم وفدا مثلهم - وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعوهم " فصلوا إلى المشرق . قال : فكلّم رسول الله صلى

اﻟﻌﻠﻤﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﻣﻨﻬﻢ ﺃﺑﻮ ﺣﺎﺭﺛﺔ ﺑﻦ ﻋﻠﻘﻤﺔ ﻭﺍﻟﻌﺎﻗﺐ ﻋﺒﺪ ﺍﻟﻤﺴﻴﺢ ﻭﺍﻟﺄﻳﻬﻢ - ﻭﻫﻢ ﻣﻦ ﺍﻟﻨﺼﺮﺍﻧﻴﺔ ﻋﻠﻰ ﺩﻳﻦ ﺍﻟﻤﻠﻚ ﻣﻊ ﺍﺧﺘﻼﻑ ﺃﻣﺮﻫﻢ - ﻳﻘﻮﻟﻮﻥ : ﻫﻮ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻭﻳﻘﻮﻟﻮﻥ : ﻫﻮ ﻭﻟﺪ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻭﻳﻘﻮﻟﻮﻥ : ﻫﻮ ﺛﺎﻟﺚ ﺛﻼﺛﺔ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻋﻦ ﻗﻮﻟﻬﻢ ﻋﻠﻮﺍ ﻛﺒﻴﺮﺍ ﻭﻛﺬﻟﻚ ﺍﻟﻨﺼﺮﺍﻧﻴﺔ ﻓﻬﻢ ﻳﺤﺘﺠﻮﻥ ﻓﻲ ﻗﻮﻟﻬﻢ ﻫﻮ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﺑﺄﻧﻪ ﻛﺎﻥ ﻳﺤﻴﻲ ﺍﻟﻤﻮﺗﻰ ﻭﻳﺒﺮﺀ ﺍﻟﺄﻛﻤﻪ ﻭﺍﻟﺄﺑﺮﻭﺕ ﻭﺍﻟﺄﺳﻘﺎﻡ ﻭﻳﺨﺒﺮ ﺑﺎﻟﻐﻴﻮﺏ ﻭﻳﺨﻠﻖ ﻣﻦ ﺍﻟﻄﻴﻦ ﻛﻬﻴﺌﺔ ﺍﻟﻄﻴﺮ ﻓﻴﻨﻔﺦ ﻓﻴﻪ ﻓﻴﻜﻮﻥ ﻃﻴﺮﺍ ﻭﺫﻟﻚ ﻛﻠﻪ ﺑﺄﻣﺮ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ . ﻭﻟﻴﺠﻌﻠﻪ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﺁﻳﺔ ﻟﻠﻨﺎﺱ ﻭﻳﺤﺘﺠﻮﻥ ﻓﻲ ﻗﻮﻟﻬﻢ ﺑﺄﻧﻪ ﺑﻨﻲ ﺍﺑﻦ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻳﻘﻮﻟﻮﻥ : ﻟﻢ ﻳﻜﻦ ﻟﻪ ﺃﺏ ﻳﻌﻠﻢ ﻭﻗﺪ ﺗﻜﻠﻢ ﻓﻲ ﺍﻟﻤﻬﺪ ﺑﺸﻴﺌﻪ ﻟﻢ ﻳﺼﻨﻌﻪ ﺃﺣﺪ ﻣﻦ ﺑﻨﻲ ﺁﺩﻡ ﻗﺒﻠﻪ ﻭﻳﺤﺘﺠﻮﻥ ﻋﻠﻰ ﻗﻮﻟﻬﻢ ﺑﺄﻧﻪ ﺛﺎﻟﺚ ﺛﻼﺛﺔ ﻳﻘﻮﻝ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ : ﻓﻌﻠﻨﺎ ﻭﺃﻣﺮﻧﺎ ﻭﺧﻠﻘﻨﺎ ﻭﻗﻀﻴﻨﺎ ﻓﻴﻘﻮﻟﻮﻥ ﻟﻮ ﻛﺎﻥ ﻭﺍﺣﺪﺍ ﻣﺎ ﻗﺎﻝ ﺇﻻ ﻓﻌﻠﺖ ﻭﺃﻣﺮﺕ ﻭﻗﻀﻴﺖ ﻭﺧﻠﻘﺖ ﻭﻟﻜﻨﻪ ﻫﻮ ﻋﻴﺴﻰ ﻭﻣﺮﻳﻢ - ﺗﻌﺎﻟﻰ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻭﺗﻘﺪﺱ ﻭﺗﻨﺰﻩ ﻋﻤﺎ ﻳﻘﻮﻝ ﺍﻟﻄﺎﻟﻤﻮﻥ ﻭﺍﻟﺠﺎﺣﺪﻭﻥ ﻋﻠﻮﺍ ﻛﺒﻴﺮﺍ - ﻭﻓﻲ ﻛﻞ ﺫﻟﻚ ﻣﻦ ﻗﻮﻟﻬﻢ : ﻗﺪ ﻧﺰﻝ ﺍﻟﻘﺮﺁﻥ .

ﻓﻠﻤﺎ ﻛﻠﻤﻪ ﺍﻟﺤﺒﺮﺍﻥ ﻗﺎﻝ ﻟﻬﻤﺎ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻭﺳﻼﻡ : " ﺃﺳﻠﻤﺎ " ﻗﺎﻝ : ﻗﺪ ﺃﺳﻠﻤﻨﺎ . ﻗﺎﻝ " ﺇﻧﻜﻤﺎ ﻟﻢ ﺗﺴﻠﻤﺎ ﻓﺄﺳﻠﻤﺎ " ﻗﺎﻝ : ﺑﻠﻰ ﻗﺪ ﺃﺳﻠﻤﻨﺎ ﻗﺒﻠﻚ ﻗﺎﻝ : " ﻛﺬﺑﺘﻤﺎ ﻳﻤﻨﻌﻜﻤﺎ ﻣﻦ ﺍﻟﻴﺴﻼﻡ ﺍﺩﻋﺂﯞﻛﻤﺎ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻭﻟﺪﺍ ﻭﻋﺒﺎﺩﺗﻜﻤﺎ ﺍﻟﺼﻠﻴﺐ ﻭﺃﻛﻠﻜﻤﺎ ﺍﻟﺨﻨﺰﻳﺮ " ﻗﺎﻟﺎ : ﻓﻤﻦ ﺃﺑﻮﻩ ﻳﺎ ﻣﺤﻤﺪ ؟ ﻓﺼﻤﺖ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﻋﻨﻬﻤﺎ ﻓﻠﻢ ﻳﺠﺒﻬﻤﺎ ﻓﺄﻧﺰﻝ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻓﻲ ﺫﻟﻚ ﻣﻦ ﻗﻮﻟﻬﻢ ﻭﺍﺧﺘﻼﻑ ﺃﻣﻬﻢ ﺻﺪﺭ ﺳﻮﺭﺓ (ﺃﻝ ﻋﻤﺮﺍﻥ) ﺇﻟﻰ ﺑﻀﻊ ﻭﺛﻤﺎﻧﻲ ﺁﻳﺔ ﻣﻨﻬﺎ . ﺛﻢ ﺗﻜﻠﻢ ﺑﻨﻲ ﺃﺳﺤﺎﻕ ﻋﻠﻰ ﺗﻔﺴﻴﺮﻫﺎ ﺇﻟﻰ ﺃﻥ ﻗﺎﻝ : ﻓﻠﻤﺎ ﺃﺗﻰ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﺍﻟﺨﺒﺮ ﻣﻦ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻭﺍﻟﻔﺼﻞ ﻣﻦ ﺍﻟﻘﻀﺎﺀ ﺑﻴﻨﻪ ﻭﺑﻴﻨﻬﻢ ﻭﺃﻣﺮ ﺑﻤﺎ ﺃﻣﺮ ﺑﻪ ﻣﻦ ﻣﻼﻋﻨﺘﻬﻢ ﺇﻥ ﺭﺩﻭﺍ ﺫﻟﻚ ﻋﻠﻴﻪ ﺩﻋﺎﻫﻢ ﺇﻟﻰ ﺫﻟﻚ ﻓﻘﺎﻟﻮﺍ : ﻳﺎ ﺃﺑﺎ ﺍﻟﻘﺎﺳﻢ ﺩﻋﻨﺎ ﻧﻨﻈﺮ ﻓﻲ ﺃﻣﺮﻧﺎ ﺛﻢ ﻧﺄﺗﻴﻚ ﺑﻤﺎ ﻧﺮﻳﺪ ﺃﻥ ﻧﻔﻌﻞ ﻓﻴﻤﺎ ﺩﻋﻮﺗﻨﺎ ﺇﻟﻴﻪ ﺛﻢ ﺍﻧﺼﺮﻓﻮﺍ ﻋﻨﻪ ﺛﻢ ﺧﻠﻮﺍ ﺑﺎﻟﻌﺎﻗﺐ ﻭﻛﺎﻥ ﺫﺍ ﺭﺃﻳﻬﻢ ﻓﻘﺎﻟﻮﺍ : ﻳﺎ ﻋﺒﺪ ﺍﻟﻤﺴﻴﺢ ﻣﺎﺫﺍ ﺗﺮﻯ ؟ ﻓﻘﺎﻝ : ﻭﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻳﺎ ﻣﻌﺸﺮ ﺍﻟﻨﺼﺎﺭﻯ ﻟﻘﺪ ﻋﺮﻓﺘﻢ ﺃﻥ ﻣﺤﻤﺪﺍ ﻟﻨﺒﻲ ﻣﺮﺳﻞ ﻭﻟﻘﺪ ﺟﺎﺀﻛﻢ ﺑﺎﻟﻔﺼﻞ ﻣﻦ ﺧﺒﺮ ﺻﺎﺣﺒﻜﻢ ﻭﻟﻘﺪ ﻋﻠﻤﺘﻢ ﺃﻧﻪ ﻣﺎ ﻻﻋﻦ ﻗﻮﻡ ﻧﺒﻴﺎ ﻗﻂ ﻓﺒﻘﻲ ﻛﺒﻴﺮﻫﻢ ﻭﻻ ﻧﺒﺖ ﺻﻐﻴﺮﻫﻢ ﻭﺇﻧﻪ ﻟﻼﺳﺘﺌﺼﺎﻝ ﻣﻨﻜﻢ ﺇﻥ ﻓﻌﻠﺘﻢ ﻓﺇﻥ ﻛﻨﺘﻢ ﺃﺑﻴﺘﻢ ﺇﻻ ﺇﻟﻒ ؟ ؟ ﺩﻳﻨﻜﻢ ﻭﺍﻟﺈﻗﺎﻣﺔ ﻋﻠﻰ ﻣﺎ ﺃﻧﺘﻢ ﻋﻠﻴﻪ ﻣﻦ ﺍﻟﻘﻮﻝ ﻓﻲ ﺻﺎﺣﺒﻜﻢ ﻓﻮﺍﺩﻋﻮﺍ ﺍﻟﺮﺟﻞ ﻭﺍﻧﺼﺮﻓﻮﺍ ﺇﻟﻰ ﺑﻠﺪﻛﻢ . ﻓﺄﺗﻮﺍ ﺍﻟﻨﺒﻲ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﻓﻘﺎﻟﻮﺍ : ﻳﺎ ﺃﺑﺎ ﺍﻟﻘﺎﺳﻢ ﻗﺪ ﺭﺃﻳﻨﺎ ﺃﻥ ﻻ ﻧﻼﻋﻨﻚ ﻭﻧﺘﺮﻛﻚ ﻋﻠﻰ ﺩﻳﻨﻚ ﻭﻧﺮﺟﻊ ﻋﻠﻰ ﺩﻳﻨﻨﺎ ﻭﻟﻜﻦ ﺍﺑﻌﺚ ﻣﻌﻨﺎ ﺭﺟﻼ ﻣﻦ ﺃﺻﺤﺎﺏﻚ ﺗﺮﺿﺎﻩ ﻟﻨﺎ ﻳﺤﻜﻢ ﺑﻴﻨﺎ ﻓﻲ ﺃﺷﻴﺎﺀ ﺍﺧﺘﻠﻔﻨﺎ ﻓﻴﻬﺎ ﻓﻲ ﺃﻣﻮﺍﻟﻨﺎ ﻓﺇﻧﻜﻢ ﻋﻨﺪﻧﺎ ﺭﺿﺎ ﻓﻘﺎﻝ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻭﺳﻼﻡ : " ﺍﺗﺘﻮﻧﻲ ﺍﻟﻌﺸﻴﺔ ﺃﺑﻌﺚ ﻣﻌﻜﻢ ﺍﻟﻘﻮﻱ ﺍﻟﺄﻣﻴﻦ " ﻓﻜﺎﻥ ﻋﻤﺮ ﺑﻦ ﺍﻟﺨﻄﺎﺏ ﺑﻪ ﻳﻘﻮﻝ : ﻣﺎ ﺃﺣﺒﺒﺖ ﺍﻟﺈﻣﺎﺭﺓ ﻗﻂ ﺣﺒﻲ ﺇﻳﺎﻫﺎ ﻳﻮﻣﺌﺪ ﺭﺟﺎﺀ ﺃﻥ ﺃﻛﻮﻥ ﺻﺎﺣﺒﻬﺎ ﻓﺮﺣﺖ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻈﻬﺮ ﻣﻬﺠﺮﺍ ﻓﻠﻤﺎ ﺻﻠﻰ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻌﻠﻤﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﺍﻟﻈﻬﺮ ﺳﻠﻢ ﺛﻢ ﻧﻈﺮ ﻋﻦ ﻳﻤﻴﻨﻪ ﻭﺷﻤﺎﻟﻪ ﻓﺠﻌﻠﺖ ﺃﺗﻄﺎﻭﻝ ﻟﻪ ﻟﻴﺮﺍﻧﻲ ﻓﻠﻢ ﻳﺰﻝ ﻳﻠﺘﻤﺲ ﺑﺒﺼﺮﻩ ﺣﺘﻰ ﺭﺃﻯ ﺃﺑﺎ ﻋﺒﻴﺪﺓ ﺑﻦ ﺍﻟﺠﺮﺍﺡ ﻓﺪﻋﺎﻩ ﻓﻘﺎﻝ : " ﺃﺧﺮﺝ ﻣﻌﻬﻢ ﻓﺎﻗﻀﻲ ﺑﻴﻨﻬﻢ ﺑﺎﻟﺤﻖ ﻓﻴﻤﺎ ﺍﺧﺘﻠﻔﻮﺍ ﻓﻴﻪ " ﻗﺎﻝ ﻋﻤﺮ ﻓﺬﻫﺐ ﺑﻬﺎ ﺃﺑﻮ ﻋﺒﻴﺪﺓ ﺑﻪ .

وقال البخاري عن حذيفة B ه قال : جاء العاقب والسيد صاحباً نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبننا من بعدنا قالا : إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً فقال : " لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين " فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قم يا أبا عبيدة بن الجراح " فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا أمين هذه الأمة " وفي الحديث عن ابن عباس قال قال أبو جهل قبحه الله : إن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته . قال فقال : " لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً " (رواه أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حسن صحيح) .

والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع لأن الزهري قال : كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح وهي قوله تعالى : { قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر } الآية . وقال أبو بكر بن مردويه عن جابر : قدم على النبي A العاقب والطيب فدعاهما إلى الملائنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة قال : فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي بعثني بالحق لو قالا : لا لأمطر عليهم الوادي نارا " . قال جابر : وفيهم نزلت : { ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم } (رواه ابن مردويه والحاكم في المستدرک ورواه الطيالسي عن الشعبي مرسلًا قال ابن كثير : وهذا أصح .

ثم قال تعالى : { إن هذا لهو القصص الحق } أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد { وما من إله إلا الله وإن الله العزيز الحكيم ... فإن تولوا } أي عن هذا إلى غيره { فإن الله عليم بالمفسدين } أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به وسيجزيه على ذلك شر الجزاء وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده ونعوذ به من حلول نقمته